وذلك العود أمر استقبالي لأن كلمة إن تقلب الماضي إلى معنى الاستقبال والمعلق
بالمستقبل ابتداءً يقع بعد وقوع المعلق عليه فلا بد أن يكون الافتراء واقعاً بعد حصول
العود في المستقبل فيمتنع أن يسبق وقوعه على زمان وقوع الشرط الآن قوله قد افترينا
بلفظ الماضي المصدّر بكلمة قد يقتضي أن يكون وقوع الافتراء سابقاً على وقوع العود
لأن كلمة إن لا تقلب الماضي المصدّر بكلمة قد ولا المقدّم على الشرط إلى المضارع فكيف إذا
اجتمع الأمران فقوله قد افترينا على الله كذباً إن عدنا موضع إشكال لدلالته على كون الافتراء
المعلق على العود واقعاً قبل وقوعه ولا معنى له فأشار المصنف إلى حله بقوله وهو بمعنى المستقبل
لازم يقع يعني أن الافتراء لكونه مما يقصد وقوعه على وقوع العود المفروض وقوعه في
المستقبل صح جعله جواباً له من حيث المعنى إلا أنه عبّر بلفظ الماضي تنزيلاً للافتراء المرتب على العود
منزلة الواقع للمبالغة في الامتناع عن العود وأدخل عليه كلمة قد لتقريبه من الحال فقوله قد افترينا
إخبار مقيد بالشرط أي قد افترينا الآن إن هممنا بالعود في ملتكم بعد أن وفقنا الله تعالى
للخلاص منها بالتوحيد كالجملة استئناف إخبار فيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكذبنا
على الله إن عدنا في الكفر فإن من عاد إلى الكفر والإشراك فقد يزعم أن لله تعالى نداً أي
افتراء أعظم منه قوله وقيل إنه جواب قسم محذوف حذفت اللام منه
ومعطوف على قوله أي قد افترينا الآن إن هممنا العود يعني أن قوله افترينا إلى آخره
استئناف إخبار فيه معنى التعجب ويحتمل أن يكون جواب قسم محذوف
وضعف الاحتمال الثاني لأن المقام ليس مقام القسم وأنه علم
أنكر كون العود إلى الكفر افتراء على الله بل المقام مقام المبالغة في الامتناع
فالتعجب ممن عاد إليه بعد وقوفه على دلائل الوحدانية وليس المقصود
من نقل هذا القول حل الإشكال الوارد على قوله قد افترينا على الله كذباً إن عدنا
إنه لا مدخل لاعتبار القسم في حل الإشكال المذكور إذ لا يندفع الإشكال إلا بحمل الماضي
بمعنى المستقبل فإنه بما في الباب أن يعبر عنه بلفظ الماضي تنزيلاً له منزلة الواقع وتزاد لفظة قد
تقريباً له إلى الحال فاعتبار القسم ضائع في دفع الإشكال قوله وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله

الله كما هو مذهب أهل السنة وجه الدلالة أن معنى الآية ليس لنا أن نعود إلى ملتكم التي
هي ملة الكفر إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى تلك الملة فكان هذا الكلام تجويزاً
من شعيب عليه السلام أن يعيده الله تعالى إلى الكفر بمشيئته استدل أهل السنة بهذه
الآية على مذهبهم بوجه آخر وهو أنه عليه السلام قال إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها
فدل على أن المنجي من الكفر هو الله تعالى ولو كان الإيمان يحصل بخلق العبد لكان العبد
هو المنجي نفسه وهو خلاف قوله إذ نجانا الله منها قوله وقيل أراد به لما ذكر
وجه استدلال أهل السنة بهذه الآية على أن الكفر يحصل بمشيئة الله تعالى
ذكر جواب المعتزلة عنه وهو أن تعليق العود إلى الكفر على مشيئة الله تعالى
ليس مبنياً على أن الكفر والإيمان يحصلان بخلق الله ومشيئته بل المراد حسم طمعهم
من العود إلى الكفر بتعليقه بالمحال كما يقال لا أفعل ذلك إلا إذا ابيض الغراب
وشاب الغراب فعلق شعيب عليه السلام عوده إلى ملتهم بما علم أنه لا يكون أصلاً
وهو إنشاء كفر عنده أو إظهار أمرنا أي ويجوز أن يراد بالفتح الكشف والتبيين
بأن ينزل الله تعالى على قوم شعيب عذاباً يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب
وشيعته محقين قوله وقال الملأ الذين كفروا عطف على قوله قال الملأ الذين استكبروا
يعني أن الملأ لم يقتصروا على تكذيب شعيب وقولهم له لنخرجنك يا شعيب وشيعتك
بل صدوا غيرهم عن اتباع شعيب عليه السلام قوله وللتنبيه على هذا أي على أن مناط الخسران
هو تكذيب الأنبياء لا تصديقهم واتباعهم فإن تعليق الحكم على الاسم الموصول يشعر
علية الصلة للحكم المذكور بعدها فإذا كانت تكذيب الأنبياء علة الخسران يكون تصديقهم و
الاتباع بهم سبباً للفوز وسعادة الدارين فيكون تكرير الموصول مبالغة في بيان كون
تكذيبهم مناط الخسران وتصديقهم مناط الفوز بالمنى قوله واستئناف بالجملتين أي
ابتدائهما فإن كل واحد من الجملتين كلام مبتدأ تمام كأنهم عند قوله فأصبحوا في دارهم
جاثمين جيء بهما لتقرير استحقاقهم لما أصابهم من عذاب الاستئصال وأن المصدقين المتبعين
بمعزل عنه قوله فإنه تأسفاً يعني أن الظاهر أن توليه عنهم كان بعدما أبصرهم جاثمين في

Copyright © King Saud University